المحاضرة رقم 08: المنطلقات الايديومعرفية للثقافة الجزائرية (01)

تمهيد

تُعدّ الثقافة أحد المفاهيم المركزية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، لما تنطوي عليه من قدرة تفسيرية عميقة للبُنى الرمزية والمعرفية التي تُنظّم حياة المجتمعات وتوجّه وعيها الجمعي. وفي السياق الجزائري، تكتسب دراسة الثقافة أهمية مضاعفة، نظرًا لتعقّد مسار تشكّلها التاريخي وتعدد روافدها الإيديولوجية والمعرفية، من موروثات أمازيغية وعربية إسلامية، إلى تأثيرات استعمارية، وصولًا إلى تحولات الدولة الوطنية والعولمة المعاصرة.

تنطلق هذه المحاضرة من مقاربة إيديومعرفية تسعى إلى تجاوز الفهم الوصفي للثقافة، من خلال تحليل العلاقة الجدلية بين الإيديولوجيا والمعرفة بوصفهما محددين أساسيين لإنتاج المعنى وبناء الهوية الثقافية. فالثقافة لا تُفهم هنا باعتبارها تراكمًا من العادات والرموز فحسب، بل كنسق فكري ومعرفي يتشكل في سياق الصراع والتفاعل بين قوى اجتماعية وتاريخية متعددة. وعليه، فإننا نستهدف تفكيك المنطلقات الإيديومعرفية للثقافة الجزائرية، عبر تتبع تشكلها التاريخي، وتحليل مكوناتها الراهنة، والكشف عن آليات إعادة إنتاجها في الممارسات اليومية والخطابات الرسمية وغير الرسمية، وذلك اعتمادًا على مناهج أنثروبولوجية تاريخية وتأويلية ونقدية، تسمح بفهم أعمق لجدلية الثبات والتغير في الثقافة الجزائرية المعاصرة.

أولا: الأسس النظرية والمنهجية لدراسة الثقافة الجزائرية

مقدمة

إنّ تحليل الثقافة الجزائرية لا يمكن أن يتم بمعزل عن فهم الإطار النظري والمنهجي الذي يحدد طبيعة الظاهرة الثقافية ذاتها. فالثقافة، في المنظور الأنثروبولوجي، ليست مجرد نتاج مادي أو رمزي فحسب، بل هي نسق معرفي ومعياري يتشكل ضمن سياق اجتماعي وتاريخي محدد. ومن هنا تنبع أهمية محاضرتنا في وضع الأسس النظرية والمنهجية التي ستمكّن من مقاربة الثقافة الجزائرية مقاربة علمية دقيقة، تجمع بين التحليل الإيديولوجي والمعرفي.

لقد تعددت المقاربات النظرية في تفسير الثقافة، بدءًا من المدرسة التطورية والانتشارية، مرورًا بالمدرسة الوظيفية والبنيوية، وصولًا إلى المقاربات التأويلية وما بعد الحداثية، وكل اتجاه من هذه الاتجاهات ساهم في بناء تصور معين حول العلاقة بين الثقافة والمعرفة والإيديولوجيا، وهي العلاقة التي تشكل جوهر الإشكالية الإيديومعرفية التي سنحاول معالجتها.

1. مفهوم الثقافة في الفكر الأنثروبولوجي:

يُعدّ مفهوم الثقافة من أكثر المفاهيم ثراءً وتعددًا في العلوم الاجتماعية، إذ تجاوز معناه الضيق الذي يحصرها في الفنون والآداب إلى معناها الشامل الذي يتضمن القيم والمعتقدات والمعارف والرموز التي تميز جماعة بشرية معينة. وقد عرّف **إدوارد تايلور**

(Edward Tylor) الثقافة بأنها: "**ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل ما يكتسبه الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع.**"

أما **كلايد كلوكهون (Kluckhohn)** فيرى أن الثقافة هي "**طريقة الحياة المميزة لجماعة من الناس، تتجسد في أنماط التفكير والسلوك والقيم**"، وفي السياق الأنثروبولوجي الحديث، ركّز **كليفورد غيرتز (Clifford Geertz)** على البعد التأويلي للثقافة، معتبراً إياها "**شبكة من المعاني التي ينسجها الإنسان بنفسه**"، أي أن الثقافة نظام رمزي تأويلي يعبر عن المعنى الاجتماعي للحياة.

بناءً على هذه التصورات، يمكن القول إنّ الثقافة الجزائرية ليست مجرد تراكم تاريخي من الممارسات، بل هي نسق من المعاني المتجذرة في الوعي الجمعي، تتفاعل داخله المرجعيات الدينية واللغوية والسياسية، بما يجعلها مجالًا خصبًا للتحليل الإيديومعرفي.

2. المقاربة الإيديومعرفية للثقافة:

يقصد بالمقاربة الإيديومعرفية تحليل الثقافة من زاويتين متكاملتين:

- **البعد الإيديولوجي** الذي يتمثل في المنظومة الفكرية والقيمية التي تحدد رؤية المجتمع للعالم وتوجه سلوكه الجمعي.
- **البعد المعرفي** الذي يعبر عن أنماط التفكير والمعرفة التي تنتجها الجماعة في فهمها للواقع وتفسيرها له.

بهذا المعنى، فإنّ المنطلقات الإيديومعرفية هي الأسس التي ينبني عليها الفعل الثقافي والمعرفي في آن واحد. وفي الحالة الجزائرية، نجد أن التفاعل بين الإيديولوجيا (الدينية والوطنية والسياسية) والمعرفة (العلمية والتعليمية والدينية) قد أسّس لنمط ثقافي متميز، يتأرجح بين الأصالة والحداثة، بين المحلي والعالمي.

3. البعد الإيديولوجي في فهم الثقافة الجزائرية:

تاريخيًا، تشكّلت الثقافة الجزائرية تحت تأثير مجموعة من الإيديولوجيات المتعاقبة:

- **الإيديولوجيا الدينية الإسلامية:** تشكل المرجعية الإسلامية أحد الأعمدة الرئيسة للثقافة الجزائرية، حيث تؤطر منظومة القيم والعلاقات الاجتماعية والرمزية. فهي تحدد معنى الخير والشر، والعلاقة بالسلطة وبالآخر، وتشكل بذلك بعدًا أساسياً في الوعي الجمعي.
- **الإيديولوجيا الوطنية:** خلال فترة الاستعمار الفرنسي (1830–1962)، اكتسبت الثقافة الجزائرية بعدًا نضاليًا تحرريًا، حيث أصبحت الأداة الأساسية في مقاومة طمس الهوية. فتكونت إيديولوجيا وطنية ذات طابع ثقافي – لغوي، تمحورت حول الدفاع عن اللغة العربية والإسلام والانتماء الوطني.

- **الإيديولوجيا السياسية والتعليمية بعد الاستقلال:** بعد 1962، اتخذت الدولة الجزائرية من الثقافة أداة لتوحيد المجتمع وبناء الأمة. فتبنّت خطابًا ثقافيًا يقوم على التعريب والاشتراكية والثقافة الوطنية، ما جعل الثقافة مجالاً للصراع بين السلطة والنخب الفكرية حول تحديد ماهية الهوية الثقافية الجزائرية.

4. البعد المعرفي في الثقافة الجزائرية:

يتجلى البعد المعرفي في طبيعة أنماط التفكير والإنتاج الرمزي والمعرفي داخل المجتمع الجزائري. ويمكن تحديد ثلاثة مستويات رئيسية لهذا البعد:

- **المعرفة التقليدية:** وهي تلك التي تتجسد في الموروث الشعبي والديني والقبلي، كالأساطير، الأمثال، العادات، والتقاليد التي تحمل في طياتها أنماطًا فكرية قديمة متوارثة.
- **المعرفة الدينية والعالِمية:** حيث ظلت الزوايا والمدارس القرآنية عبر التاريخ فضاءات لتكوين المعرفة الدينية، في حين أسهمت مؤسسات التعليم الحديثة في إنتاج معرفة جديدة تمزج بين المحلي والوافد الغربي.
- **المعرفة الحديثة والمعولمة:** مع تطور وسائل الإعلام والاتصال والانفتاح على العالم، دخلت الثقافة الجزائرية مرحلة جديدة من إعادة تشكيل وعيها المعرفي، ما أفرز صراعًا بين منظومة القيم التقليدية والأنماط الفكرية الجديدة.

5. المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الثقافة الجزائرية:

تتعدد المناهج التي يمكن من خلالها دراسة الثقافة الجزائرية، ومن أهمها:

- **المنهج التاريخي:** الذي يساعد على تتبع تطور الثقافة الجزائرية عبر الزمن، وفهم التحولات الإيديولوجية والمعرفية التي مرت بها.
- **المنهج البنيوي:** الذي يركز على دراسة البنية الرمزية للثقافة من خلال تحليل اللغة، الطقوس، والعادات بوصفها أنساقًا دلالية.
- **المنهج التأويلي (الهرمنيوطيقي):** كما عند كليفورد غيرتز، يهدف إلى فهم المعاني التي يمنحها الأفراد لأفعالهم وسلوكياتهم الثقافية.
- **المنهج المقارن:** الذي يتيح مقارنة البنية الثقافية الجزائرية ببنى ثقافية أخرى، خاصة المغاربية والعربية، لفهم الخصوصية المحلية ضمن الإطار الإقليمي.

خلاصة

يتضح مما سبق أن الثقافة الجزائرية تمثل منظومة رمزية ومعرفية مركبة تتفاعل فيها الإيديولوجيا بالمعرفة، والمقدس بالمدني، والتاريخي بالراهن. فالمنطلق الإيديومعرفي لا يمكن عزله عن الإطار الاجتماعي والسياسي الذي أنتجه، إذ أن الثقافة الجزائرية تُبنى باستمرار عبر جدلية الذات والآخر، والهوية والانتماء، والمعرفة والإيمان.

ثانيا: تشكّل الثقافة الجزائرية تاريخيًا

مقدمة

إنّ الثقافة الجزائرية ليست ظاهرة طارئة أو محدثة، بل هي حصيلة سيرورة تاريخية طويلة، ساهمت فيها عوامل متعددة: إثنية، لغوية، دينية، وسياسية. لقد تعاقبت على الجزائر حضارات وأمم تركت بصماتها في اللغة والدين والعادات والقيم، فكوّنت في النهاية فسيفساء ثقافية متميزة.

تشكّلت الثقافة الجزائرية في إطار ما يمكن تسميته بـ "**التاريخ الإيديومعرفي**"، أي التاريخ الذي تتقاطع فيه المعرفة والإيديولوجيا في إنتاج الوعي الجمعي.

ومن أجل فهم المنطلقات الإيديومعرفية لهذه الثقافة، لا بد من تتبع نشأتها عبر ثلاث مراحل أساسية:

- **المرحلة التكوينية القديمة (الأمازيغية "البربرية" والعربية الإسلامية)**
- **المرحلة الاستعمارية الفرنسية (1830–1962)**
- **مرحلة ما بعد الاستقلال (1962–إلى اليوم)**

1. الموروث الأمازيغي/ البربري: الأصالة

تُعدّ **الأمازيغية** من أقدم المكونات الثقافية التي عرفتها الجزائر، وهي تشكّل بعدا أنثروبولوجيا أصيلا للهوية الثقافية الجزائرية، وقد كانت الثقافة الأمازيغية نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، فانبثقت منها منظومات معرفية تقليدية، ومعتقدات دينية أولية، وأنماط حياة جماعية متماسكة.

- **اللسان الأمازيغي المتعدد** مثل الوعاء الرمزي للهوية، وكان وسيلة لتناقل المعرفة عبر الأجيال من خلال الرواية الشفوية والأمثال والحكايات الشعبية.
- **النظام القبلي** أسس لقيم التضامن، العدالة، والمساواة، وهو ما شكل لاحقًا قاعدة للثقافة الجماعية الجزائرية.

- **العلاقات مع العالم الخارجي** (الفينيقيون، الرومان، الوندال، البيزنطيون) أثرت على النمط الثقافي الأمازيغي من حيث التنظيم الاجتماعي والديني، لكنها لم تمحُ الخصوصية المحلية.

إذن، يمكن القول إن الموروث الأمازيغي يعد جذرا أصيلا رسّخ **المنظور المحلي للمعرفة**، القائم على التجربة اليومية والبيئة الطبيعية، و**المنظور الإيديولوجي** القائم على العصبية والهوية الجماعية.

2. المكوّن العربي الإسلامي: توحيد الرموز وبناء المعنى

تتناقل السرديات التاريخية المختلفة وجودا عربيا قديما جدا في شمال افريقيا، غير أن الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، حمل أثرا عربيا بالغا دخلت على اثره الجزائر مرحلة جديدة من تاريخها الثقافي، اتسمت بانتقالها من التعدد الديني واللغوي إلى الوحدة الرمزية القائمة على الإسلام والعربية، وقد حمل الإسلام منظومة معرفية وإيديولوجية متكاملة، تمثلت في:

- **البعد المعرفي** :القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (الفقه، التفسير، اللغة)، التي أصبحت أساس المعرفة والتعليم في الزوايا والمدارس.
- **البعد الإيديولوجي** :قيم العدالة، المساواة، والأخوة، التي شكلت المرجعية الأخلاقية والاجتماعية للمجتمع.

أصبحت **الزوايا الصوفية** أحد أبرز الفضاءات التي جمعت بين المعرفة والإيديولوجيا في الثقافة الجزائرية، إذ كانت مؤسسات دينية وتعليمية واجتماعية في الوقت ذاته، كما أسهمت **الحركة الإصلاحية** في القرن التاسع عشر، وعلى رأسها **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين** بقيادة **عبد الحميد بن باديس**، في ترسيخ الهوية الثقافية العربية الإسلامية، وإحياء اللغة العربية كعنصر مقاومة للهيمنة الفرنسية.

إنّ دخول الإسلام لم يلغِ الموروث الأمازيغي، بل أعاد تشكيله ضمن منظومة دلالية جديدة، فنتجت عن ذلك **ثقافة مزدوجة الهوية** تجمع بين المحلي (الأمازيغي) والعالمي (الإسلامي).

3. الحقبة الاستعمارية الفرنسية (1830–1962): الصراع الإيديومعرفي

مع الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، واجه المجتمع الجزائري محاولة ممنهجة لتفكيك بنيته الثقافية والإيديولوجية، حيث اعتمدت الإدارة الاستعمارية سياسة "**الاغتراب الثقافي**(Aliénation culturelle) "، عبر نشر اللغة الفرنسية، ومحاربة اللغة العربية والتعليم الديني، وتشويه الوعي التاريخي الوطني.

- **البعد المعرفي في المشروع الاستعماري**

ركزت فرنسا على إنتاج معرفة استعمارية (Savoir colonial) تقوم على تصوير الجزائري ككائن بدائي يحتاج إلى "تمدين"، كما حاولت فرض نموذج معرفي غربي يشكل قطيعة مع الثقافة الإسلامية.

❖ **البعد الإيديولوجي للمقاومة**

في المقابل، تشكلت إيديولوجيا مقاومة ثقافية قوية، اعتمدت على:

- الدين الإسلامي كمرجعية للمقاومة (الطرق الصوفية).
- اللغة العربية كرمز للهوية.
- المدرسة الحرة والصحافة الوطنية كفضاء لإنتاج معرفة مضادة.

وقد عبّر **ابن باديس** بوضوح عن هذا البعد حين قال: "**شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب**".

هذه المرحلة شكلت **ذروة التوتر الإيديومعرفي** في تاريخ الثقافة الجزائرية، حيث أصبحت الثقافة أداة صراع بين مشروعين: مشروع الهيمنة ومشروع التحرر.

4. مرحلة ما بعد الاستقلال (1962–إلى اليوم): إعادة بناء الثقافة الوطنية

بعد الاستقلال، دخلت الجزائر مرحلة جديدة من إعادة بناء الذات الثقافية، إذ عملت الدولة الوطنية على صياغة **إيديولوجيا ثقافية رسمية** تهدف إلى تحقيق الوحدة الوطنية والانسجام الاجتماعي. وقد اتخذ هذا المشروع أشكالًا متعددة:

❖ **التعريب وبناء الهوية الوطنية**

تم تبني **التعريب** كسياسة لغوية وثقافية لتعزيز الانتماء العربي الإسلامي، لكنه واجه صعوبات نتيجة التعدد اللغوي والبعد الأمازيغي الذي ظل حاضرًا بقوة في المجتمع. وأصبحت الثقافة أداة سياسية لبناء الدولة الحديثة وتوحيد الشعب، ما أدى إلى بروز صراعات رمزية حول تعريف "الهوية الجزائرية."

❖ **التعليم والإعلام كأدوات للمعرفة الرسمية**

اعتمدت الدولة على نظام التعليم والإعلام لنشر المعرفة الوطنية، إلا أن هذه المعرفة ظلت مؤدلجة وموجهة سياسيًا، ما جعلها تفتقر إلى البعد النقدي الحر.

❖ **التحولات المعاصرة والعولمة**

منذ التسعينيات، ومع انتشار الإنترنت ووسائل الإعلام، دخلت الثقافة الجزائرية في مرحلة انفتاح عالمي. برزت **الثقافة الشبابية الحضرية** (الموسيقى، السينما، الموضة، اللهجات) كمجال جديد لتشكيل الوعي، ما أوجد **إيديولوجيات فرعية** تعكس التنوع والتعدد داخل المجتمع.

5. تفاعل المحلي والعالمي في تشكّل الثقافة الجزائرية

تُظهر دراسة الثقافة الجزائرية أن مسارها لم يكن خطيًا، بل هو **ديناميكي** يتأرجح بين الثبات والتغير، بين المحلي والعالمي. فمن جهة، حافظ المجتمع الجزائري على مرجعياته الدينية واللغوية كعناصر ثابتة، ومن جهة أخرى، استوعب الحداثة والعولمة والتكنولوجيا بوصفها أدوات جديدة للتعبير عن الذات.

لقد أدت هذه الجدلية إلى إنتاج **ثقافة هجينة**، أو كما يسميها بعض الأنثروبولوجيين "الثقافة المزدوجة(La double culture) "، تجمع بين الأصالة والانفتاح، بين التقليد والتجديد، وهي ما يميز الشخصية الثقافية الجزائرية المعاصرة.

خلاصة

يتضح من هذا التحليل أنّ الثقافة الجزائرية نتاج **تاريخ طويل من التفاعل بين مكونات متعددة** :الأمازيغية، العربية، الإسلام، الاستعمار، والوطنية الحديثة. هذا التاريخ أفرز منطلقات إيديومعرفية متشابكة جعلت الثقافة الجزائرية تحمل في طياتها تناقضات رمزية ومعرفية، فهي في الوقت ذاته محلية وعالمية، دينية وحداثية، تقليدية ومتجددة.

لقد كانت المعرفة دائمًا أداة لإعادة بناء الوعي، والإيديولوجيا وسيلة لتوجيهه، ما يجعل الثقافة الجزائرية مجالًا مفتوحًا للصراع والتفاوض حول المعنى والهوية.

ثالثا: المنطلقات الإيديومعرفية الراهنة للثقافة الجزائرية

مقدمة

تعيش الجزائر اليوم وضعًا ثقافيًا مركبًا ومتعدد الأبعاد، يتقاطع فيه التاريخي بالراهن، والمحلي بالعالمي. إنّ الثقافة الجزائرية المعاصرة ليست مجرد استمرار للتراث، بل هي نتاج سيرورة ديناميكية تتفاعل فيها الإيديولوجيا والمعرفة بشكل دائم، فالتحولات السياسية، الاقتصادية، والإعلامية التي شهدها المجتمع الجزائري منذ الاستقلال، ولا سيما خلال العقود الأخيرة، أعادت تشكيل المنظومة الإيديومعرفية للثقافة الوطنية، سواء في أنماط التفكير أو القيم أو التمثلات الرمزية.

ونهدف عبر هذه المحاضرة إلى الكشف عن أبرز المنطلقات الإيديومعرفية التي تميز الثقافة الجزائرية الراهنة، من خلال تحليل المرجعيات الدينية واللغوية، والخطابات الوطنية والسياسية، ودور الإعلام والتعليم والنخب الفكرية في إنتاج المعرفة الثقافية.

1. المرجعية الدينية واللغوية كدعامة للهوية الثقافية

أ- البعد الديني: الإسلام كإطار معرفي وإيديولوجي

يظل **الإسلام** إلى اليوم الركيزة المركزية في تشكيل الثقافة الجزائرية، ليس فقط من حيث الممارسات الدينية، بل باعتباره **نظامًا معرفيًا وإيديولوجيًا** ينظم رؤية الفرد للعالم، فالقيم الإسلامية مثل العدالة، التضامن، والتقوى، ما تزال تؤطر الوعي الجمعي وتشكل قاعدة للأخلاق والسلوك الاجتماعي.

ومع ذلك، فإنّ الخطاب الديني في الجزائر مرّ بتحولات كبيرة:

- في فترة ما بعد الاستقلال، كان الخطاب الرسمي يوظف الدين في خدمة مشروع الدولة الوطنية.
- خلال تسعينيات القرن العشرين (العشرية السوداء)، تحوّل الدين إلى ساحة صراع إيديولوجي حاد بين التيارات الإسلامية والدولة.
- في المرحلة المعاصرة، عاد الخطاب الديني إلى التوازن النسبي، لكنه أصبح أكثر **تنوعًا** بفعل تعدد المنابر الإعلامية والرقمية.

هذا التغير يدل على أنّ الإسلام في الجزائر ليس جامدا، بل **نظام معرفي ديناميكي** يعيد إنتاج ذاته بحسب السياقات الاجتماعية والسياسية.

ب- البعد اللغوي: اللغة كرمز للهوية والمعرفة

اللغة في الجزائر ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي **رمز ثقافي ومعرفي** يعكس الصراع بين المرجعيات المختلفة:

- **اللغة العربية** تمثل المرجعية الرسمية والدينية والوطنية.
- **اللغة الأمازيغية** تعبّر عن الأصالة والهوية المحلية، وقد تم ترسيمها كلغة وطنية ورسمية لأول مرة سنة 2016.
- **اللغة الفرنسية** تمثل بعدًا معرفيًا ووسيلة للانفتاح العلمي والتكنولوجي، لكنها في الوقت ذاته ترمز للإرث الاستعماري.

إنّ التعدد اللغوي في الجزائر يعكس **الجدل الإيديومعرفي** بين الهوية والانفتاح، بين الأصالة والمعاصرة، فكل لغة تحمل معها منظومة فكرية ورؤية معرفية مختلفة، ما يجعل الثقافة الجزائرية فضاءً للتعدد والتفاوض الرمزي.

2. الخطابات الوطنية والسياسية وصياغة الوعي الثقافي

منذ الاستقلال، لعبت الدولة الجزائرية دورًا مركزيًا في **توجيه الثقافة** وتحديد معاني الهوية الوطنية. فقد تبنت السلطة السياسية ما يمكن تسميته بـ "**الإيديولوجيا الوطنية الموجهة**"، التي تهدف إلى توحيد الشعب ضمن مشروع الدولة المركزية.

أ- مرحلة البناء الوطني(1962-1978)

خلال عهد الرئيس هواري بومدين، تم التركيز على بناء "الثقافة الوطنية الاشتراكية"، القائمة على القيم الجماعية، والإيمان بالوحدة الوطنية، ومقاومة النفوذ الثقافي الغربي، وكانت المدرسة والإعلام وسيلتين أساسيتين في نشر هذه الإيديولوجيا الثقافية.

ب- مرحلة الانفتاح والتحولات(1980-1990)

عرفت الجزائر في هذه المرحلة انفتاحًا نسبيًا على الفكر النقدي، وبدأت تتشكل تيارات فكرية جديدة في الجامعة والصحافة. إلا أن الصراعات السياسية والإيديولوجية سرعان ما انفجرت في التسعينيات، فانعكست سلبًا على المجال الثقافي.

ج- المرحلة المعاصرة (2000-إلى اليوم)

شهدت الجزائر انبعاثًا تدريجيًا للمجتمع المدني والحركات الثقافية الشبابية، إلى جانب صعود **ثقافة رقمية جديدة** تجاوزت الرقابة السياسية.

ومع ذلك، ما زالت الثقافة الجزائرية تواجه تحديات كبرى تتعلق بحرية التعبير، وضعف الاستثمار في الصناعات الثقافية، وتشتت الخطاب الوطني.

3. التعليم والإعلام: من المعرفة الرسمية إلى المعرفة الرقمية

أ- التعليم كجهاز لإنتاج المعرفة الرسمية

منذ الاستقلال، تبنت الجزائر سياسة تعليمية تهدف إلى **إعادة بناء الذات الوطنية**، غير أن المنظومة التعليمية ظلت لفترة طويلة أسيرة **الخطاب الإيديولوجي** أكثر من كونها فضاءً لإنتاج المعرفة الحرة، وقد ركز التعليم على حفظ القيم الوطنية والدينية، لكنه لم يُشجع بالقدر الكافي على التفكير النقدي والإبداع العلمي، وهذا ما أدى إلى ما يمكن تسميته بـ **"الفجوة الإيديومعرفية** "بين المدرسة والواقع الاجتماعي.

ب- الإعلام: من التعبئة السياسية إلى التعدد الثقافي

في العقود الأولى بعد الاستقلال، كان الإعلام أداة للدولة في نشر الخطاب الأحادي، لكن مع **ظهور القنوات الخاصة وشبكات التواصل الاجتماعي**، تحولت الساحة الإعلامية إلى فضاء مفتوح لإنتاج المعرفة والثقافة البديلة، وبرزت **المنصات الرقمية** كفضاء جديد لبناء الهويات الفردية والجماعية، مما أوجد **إيديولوجيات ثقافية موازية** خارج الإطار الرسمي، خصوصًا في أوساط الشباب.

إن هذا التحول الإعلامي يعكس انتقال الثقافة الجزائرية من **المعرفة المؤسسية** إلى **المعرفة الشبكية**، أي من الخطاب الأحادي إلى التعدد الرمزي.

4. النخب الفكرية والجامعية في إعادة إنتاج الثقافة

تؤدي النخب الفكرية، الأكاديمية والفنية، دورًا أساسيًا في صياغة الوعي الثقافي وإعادة بناء المنطلقات الإيديومعرفية. ففي الجزائر، ساهم العديد من المفكرين والباحثين في إعادة التفكير في مفهوم الهوية والثقافة، مثل:

- **مالك بن نبي** الذي ركّز على مفهوم "القابلية للاستعمار" واعتبر الثقافة الشرط الأساسي للنهضة الحضارية.
- **محمد أركون** الذي دعا إلى "نقد العقل الإسلامي" من أجل تحديث الفكر الديني.
- **عبد المجيد مزيان** و**بوعلام بن حمودة** اللذان تناولا الثقافة من منظور اجتماعي نقدي.

هذه النخب، رغم اختلاف مشاربها، تشترك في الوعي بأنّ أزمة الثقافة الجزائرية المعاصرة هي بالأساس **أزمة معرفية وإيديولوجية**، ناتجة عن غياب مشروع ثقافي متكامل يجمع بين الأصالة والتحديث.

5. الثقافة الشبابية والتحولات الرمزية المعاصرة

من أبرز سمات المرحلة الراهنة بروز **ثقافة شبابية حضرية** تُعبّر عن نفسها من خلال الموسيقى (الراب والراي والزنقاوي)، والسينما، واللغة اليومية، والإنترنت. هذه الثقافة تمثل شكلًا جديدًا من **الإيديولوجيا الثقافية اللامركزية** التي تنشأ من القاعدة الاجتماعية وليس من مؤسسات الدولة.

ومن بين الخصائص:

- **المعرفة الرقمية** أصبحت المصدر الرئيسي لتشكيل وعي الشباب.
- **الرموز البصرية واللغوية الجديدة** (العامية، المزج بين العربية والفرنسية والإنجليزية) تعكس هوية هجينة.
- **الفضاءات الافتراضية** أصبحت ميادين جديدة للتعبير الثقافي والسياسي والفني.

إن هذه التحولات تشير إلى أن الثقافة الجزائرية تمرّ بمرحلة إعادة هيكلة عميقة، يُعاد فيها تعريف الرموز والمعاني وفق إيقاع العولمة والحداثة الرقمية.

خلاصة

إنّ المنطلقات الإيديومعرفية للثقافة الجزائرية الراهنة تتحدد في التفاعل بين أربعة أبعاد أساسية:

- المرجعية الدينية واللغوية التي تمنح الثقافة ثوابتها الرمزية.
- الخطاب الوطني والسياسي الذي يوجه المعنى الجمعي.
- التعليم والإعلام كأدوات لإنتاج المعرفة ونشرها.
- النخب الفكرية والثقافة الشبابية كقوى لإعادة تشكيل الرموز والمعاني.

وبذلك، تبدو الثقافة الجزائرية اليوم في حالة **إعادة تعريف مستمرة** لذاتها، تحاول من خلالها التوفيق بين الذاكرة التاريخية ومتطلبات العصر، بين المعرفة التراثية والمعرفة الرقمية، وبين الإيديولوجيا الرسمية والإبداع الفردي.